مقدمة

كان عمري آنذاك، في حدود ١٨ سنة، أو قريبا منها..، أتابع دراستي بالسنة النهائية من البكالوريا...، لما تعرفت على وجه المفكر العربي عبد الله العروي، فذات مساء من أمسيات شتاء الشمال بالمغرب، وأنا متسمر أمام تلفاز صغير بالأبيض والأسود، أستمع إلى أساتذة جامعيين وأكاديميين يحللون النظام العالمي الجديد، ومكانة العرب داخله، أثار انتباهي رجل متقدم في السن، ملامح وجهه قريبة من العقل بعيدة عن القلب، يتحدث بثقة وبطء، أحيانا لا تسعفه الكلمات، يغلب عليه الاقتصاد..، بين الفينة والأخرى كان مخرج البرنامج يذكرنا باسمه: الأستاذ عبد الله العروي، الأستاذ الجامعي بجامعة محمد الخامس بالرباط.

لم يكن آنذاك يعني لي هذا الإسم الشيء الكثير، فقد انتهيت إلى حكم ساذج، تبدو عليه علامات الطفولة الفكرية، فالأستاذ عبد الله -في نظري- غير متمكن من موضوع النقاش...، ولا أدل على ذلك فرار الكلمات من بين شفتيه، وتلعثمه المتكرر أو تردده لا أدري....

وفي صباح ذات اليوم قابلت بعض زملائي في القسم، وتبادلنا الحديث عن البرنامج وما دار فيه، وبينما أنا ألقي الأحكام ذات اليمين وذات الشمال، والثقة تشع من عيني، فاجأني أحد الزملاء بالقول: إن الذي تتحدث عنه، وتنقص من قدره هو مفكر عربي بارز، له آثار علمية وفكرية مؤثرة في الساحة...، بدت علي علامات الدهشة، وأنا أسمع قوله، ورحت أبحث عن المبررات والكلمات التي تشفع لي، وتخلصني من حرجي...

انتهى لقائي الأول بالعروي، وانصرفت عنه إلى شؤون أخرى كانت تبدو لي أكثر أهمية من مواصلة البحث في شخصية الرجل، وبعد قرابة عام، جددت اللقاء به، لكن هذه المرة في قاعات الدرس التاريخي، وأنا طالب بشعبة التاريخ بكلية الآداب التابعة لجامعة عبد الملك السعدي، الكائنة بمدينة تطوان المغربية، وكان لقاؤنا رمزيا على مائدة مؤلف قيم، صدر للعروي في بداية التسعينيات وهو «مفهوم التاريخ»، فقرأته من ألفه إلى يائه، أحاول فهم مستغلقاته، وحفظ حكمه، واستبطان منطقه ومنهجه...، وستتعزز صلتي بالعروي أكثر خلال هذا الطور بقراءة كتاب «مجمل تاريخ المغرب»، الذي قادني كما تقود العصا الأعمى نحو عوالم تاريخ المغرب القديم، والوسيط، وبداية الحديث...

ففي هذه اللقاءات الأولى كان انبهاري بالعروي شديدا، وتدل على ذلك إحالتي عليه في الكثير من مداخلاتي في النقاش الذي كان يدور بيني وبين عدد من زملائي من الإسلاميين واليساريين. وبالرغم من انتسابي للتيار الإسلامي، لم أكن أدرك آنذاك التناقض بين ما يدعو إليه العروي، وبين تطلعي الفطري إلى خلافة الإسلام، وأن عاقبة الأمور للمتقين، وبقيت على هذه الحال حتى أواخر أيامي بالجامعة حيث بدأت أكتشف أن العروي الذي مكنته من مساحة مهمة من عقلي وتفكيري لا يوافقني الوجهة، وأن دعوته تشترط علي الانسلاخ، وقد أوقعتني في

الكثير من الفخاخ... فبدأت رحلة إدراكية أخرى أكثر نضجا وتعقلا، أدركت في نهايتها العروي كما هو لا كما تخيلته.

بدأت في اللقاء الثالث مع العروي أكتشف صرحه الإيديولوجي، الذي شرع في بنائه بشكل فعلي ومنسق في الستينيات من القرن الماضي، وتعتبر «الإيديولوجية العربية المعاصرة» أهم لبناته، التي تفسر ما قبلها وما بعدها من أعمال ونصوص، لقد مكنني هذا اللقاء الأولي، وغير المتكافئ مع الصرح الإيديولوجي للعروي -بالنظر إلى عدتي الثقافية- من إدراك مغزى فكر الرجل، ومراميه البعيدة والقريبة، التي بوأته المكانة المرموقة بين رواد الفكر الإصلاحي العربي في الفترة المعاصرة.

لقد كان العروي واضحا وصارما في مقولاته، فلم يسع لإخفاء مواقفه اتجاه الإسلام، والأصالة، والسلفية، والهوية... وراء الكلام المجرد، أو زخرف القول، وتعتبر دعواه من أجل تحقيق القطيعة الثقافية والسياسية مع الماضي، والسعي للتطابق مع الآخر... أبرز الأمثلة الدالة على الراديكالية الإصلاحية للعروي.

إن اتباع العروي في كلياته وجزئياته الفكرية يفضي بالقارئ ضرورة إلى «نكران الذات»، والتجرد من كينونته، وقد انتبهنا إلى هذا المآل الخطير، الذي يقود إليه الإعجاب المفرط، المتفلت من عقال العقل، غير أن وسعنا المعرفي والثقافي لم يمكنا ونحن في سن صغيرة من الرد على أطروحاته، وأفكاره ردا مقنعا، وخوفا من آفة النقد المبتذل، الذي أصيبت به الثقافة العربية في السنوات الأخيرة، والذي يستتر فيه الضعف الفكري وراء الشتيمة والطعن، والأحكام الجاهزة، في حين يهمل الحجة والدليل العلمي المستند إلى المنطق السليم، ولهذا آثرنا تأجيل القراءة النقدية إلى حين التمكن من مستلزماتها.

لقد انتظرنا مدة تقرب من عشرين سنة قبل كتابة هذا الرد المتكامل على أطروحة العروي الإصلاحية، راكمنا خلالها خبرة علمية، تاريخية، شرعية،

مكنتنا من مناقشته بقدر من التوازن في كثير من المعلومات التاريخية وأحوال العرب في الماضي، التي بنى عليها صرحه؛ وأيضا مكنتنا من إعادة النظر في استدلالاته المنطقية ومنهجه في مقاربة الظواهر، ونظن أن المدة الفاصلة بين أول احتكاك بصاحب «الإيديولوجية العربية المعاصرة»، الذي يعود إلى مستهل التسيعنيات، ولحظة كتابة هذا الرد في بداية العقد الثاني من الألفية الثانية كافية للدلالة على نضج هذه التجربة النقدية، وجديتها، وسلامتها من كثير من الآفات التي وقعت فيها غيرها.

ولد العروي في مدينة أزمور المغربية الواقعة على السواحل الأطلسية سنة ١٩٣٣م، من أسرة وجيهة. تلقى تعليمه الحديث في المدارس التي أسسها الفرنسيون بالمغرب بهدف تكوين وتخريج مجموعة من الأطر الصغيرة لشغل عدد من الوظائف في إدارة الحماية الفرنسية، واستفاد في سنواته الأولى من الأنشطة التوجيهية التي كانت تقيمها الحركة الوطنية في بلدته.

التحق بالرباط لاستكمال دراسته سنة ١٩٥٣م، ومنها رحل إلى فرنسا دارسا العلوم السياسية وعينه على المدرسة الوطنية للإدارة، لكن بعد سقوط حقه فيها باعتباره أجنبيا بعد استقلال المغرب سنة ١٩٥٦م توجه لدراسة التاريخ، ثم الإسلاميات. لم يكن هدف الرجل أن يكون مفكرا ولا عالما في الإنسانيات، بل كان هدفه، وهدف والده أيضا أن يكون إطارا إداريا ساميا، غير أن القدر ساقه إلى ميدان آخر، ميدان العلوم الإنسانية الذي نجم فيه بشكل لافت منذ بداياته.

وهكذا، فالسياق الثقافي والسياسي الذي عاش فيه العروي وتفتقت فيه ذهنيته كان وراء العناصر المتفردة في مشروعه الإصلاحي، ومن أبرز علامات هذا السياق التي كان لها الأثر الواضح على فكره:

- **الانفتاح على الثقافة الغربية الفرنسية والأنكلوساكسونية:** لقد استفاد العروي من وجوده في فرنسا، حيث تمكن من الاطلاع على كنوز الفكر الفرنسي، واحتك بالثقافة الفرنسية في كافة امتداداتها، وأطل من خلالها

على ذخائر الغرب الفلسفية والأدبية والعلمية. كما استفاد أيضا في مناسبة لاحقة من تواجده في الولايات المتحدة (١٩٦٧)، حيث أخذ التقاليد الفكرية والمنهجية الأنكلوساكسونية التي تختلف نوعيا عن التقاليد الفرنسية.

لقد مكن الانفتاح المبكر على الثقافة الغربية العروي من توظيف مفردات هذه الثقافة بشكل واسع في أعماله المختلفة، وخاصة منها الإصلاحية، وتوحي المراجعة السريعة لأشكال التوظيف المختلفة لمفردات ثقافة الآخر في أعماله بتمكنه منها، واستيعابها الجيد.

▪ **الانخراط في الحركة الوطنية التقدمية:** لقد انبثق الوعي السياسي للأستاذ عبد الله العروي في صفوف الحركة الوطنية المغربية، وتحديدا في حزب الاستقلال الذي كان يقوده الزعيم السلفي المرحوم علال الفاسي، غير أنه سرعان ما وجد نفسه ميالا للجناح اليساري فيه، الذي بدأ يفصح عن نفسه في أواخر الخمسينات، وهكذا وجد العروي نفسه كشاب حديث إلى جانب زعيم آخر لا يقل جاذبية عن علال الفاسي حيا وميتا وهو المهدي بن بركة، الذي رافقه سياسيا في شبابه، وفكريا بعد ما بلغ أشده.

فـ «الأيديولوجية العربية المعاصرة» من أحد جوانبها جواب على الغموض الأيديولوجي الذي عانى منه اليسار المغربي في أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات، ولمسه العروي بوضوح في شبابه، وقد كشف عن هذا الدافع في مناسبة لاحقة، مستحضرا حال صديقه ابن بركة، يقول الرجل: «لوحظ عليه [ابن بركة] في السنوات ١٩٥٥ -١٩٦٠، أنه كان يستعمل نظريات، وموضوعات ماركسية لتفسير وتبرير قراراته ومواقفه السياسية (...) كان لجوؤه إلى الماركسية من نوع خاص، يتوصل هو إلى النتيجة عن طريق تحليل مسلسل ومنطقي، لكن في العرض يقدم النتيجة جاهزة كأنها من بديهيات «العلم» العصري التي

يجب أن تقبل بدون مناقشة (...) وعندما كان يلاحظ عليه هذا الأسلوب الناقص (...)، كان يتجنب الموضوع، أو يقول إن الوقت لم يحن بعد»[1]، الشيء الذي دفع العروي من جهة إلى المجاهرة بما كان يخفيه صديقه، ثم أيضا السعي لعقلنة الوعي الماركسي وصياغته أيديولوجيا، وهو ما حاول تحقيقه من خلال «الأيديولوجية العربية المعاصرة».

ومن ثم، فالانتماء السياسي اليساري للأستاذ عبدالله العروي في بداياته أثر بشكل واضح على اختياراته الفكرية، واستمر هذا التأثير حتى بعد مغادرته العمل السياسي المباشر وتفرغه للبحث والتدريس والإنتاج العلمي، وبالتالي فالنظرية الإصلاحية التي بلورها العروي هي ليست جوابا عن انشغال نظري صرف، ولكنها، بالإضافة إلى ذلك، هي «التزام نضالي» ووجداني.

٣- الصراع مع الغرب الرأسمالي الإمبريالي: عانى المغرب كغيره من البلاد العربية من الإمبريالية الغربية، التي استغلت خيراته ونهبت ثرواته، ولم تكتف بذلك، بل عملت بعد إرغامها على الرحيل بوسائل مختلفة على ضمان «مصالحها» واستمرار استغلالها، تحت عناوين مختلفة.

وبالتالي فإذا كانت معاداة الرأسمالية قاسما مشتركا بين كل العرب مهما اختلفت أنسابهم، وتفرقت طوائفهم، واختاروا مواجهتها من موقع الأصالة، فإن العروي وخلافا للكثيرين من أبناء جيله اختار معاداتها من موقع الماركسية، باعتبار هذه الأخيرة -في نظره- لا تتعدى كونها نظرية نقدية للغرب الإمبريالي الرأسمالي.

وإجمالا، السياق الذي عاش في كنفه العروي أثر تأثيرا بالغا في فكره، وكان وراء اختياراته النظرية والثقافية، وتعتبر الأطروحة الإصلاحية التي أبدعها، والتي جسدتها «الأيديولوجية العربية المعاصرة» ونصوص

---

(١) عبد الله العروي، العرب والفكر التاريخي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط. ٥/ ٢٠٠٦، ص. ٥٤، ٥٥.

أخرى، ثمرة شرعية للسياق التاريخي والثقافي والسياسي الذي تشخص فيه العروي.

إن الأستاذ عبد الله العروي، أحد أهرامات الفكر العربي المعاصر، الجديرين بهذا اللقب، الذي تدل أعماله وإنجازاته الفكرية على حيوية العقل العربي ومقدرته الكبيرة على الإبداع والتنظير، بحيث لاقت أطروحاته قبولا لافتا للانتباه في صفوف الشباب والنخبة العربية، وتأثر به الكثيرون من أوطان عربية مختلفة، وفي مستويات مختلفة من الدولة والمجتمع. وقد تجاوز صدى أعماله حدود الوطن العربي إلى أوروبا، والولايات المتحدة الأمريكية. ويفسر هذا الإقبال بعوامل عديدة منها على سبيل المثال لا الحصر: حماسه النهضوي البارز في جل كتاباته تقريبا؛ وصرامته المنهجية؛ وقدرته التنظيرية العالية؛ وانفتاحه الكبير على الفكر الغربي مع استيعاب جزئياته وكلياته في الآن نفسه...

لقد ألف العروي في حقول معرفية مختلفة، وأغرته إشكالات وقضايا متباينة، ففي البداية غلب عليه التاريخ، ثم انصرف للفكر والفلسفة دون أن ينسى حظه مما جبل عليه (التاريخ)، وخلل ذلك كله بأعمال أدبية مهمة، وفي كل هذا العطاء كان العروي ثوريا ومقداما سواء من حيث المنهج أو الأفكار والنتائج. وبالرغم من اشتغاله بكل هذه المجالات، وتأليفه فيها، فإن الجانب الأكثر شهرة وإثارة من بين آثاره مؤلفاته الفكرية، التي تناول فيها إشكالية النهوض بالوطن العربي، وبسط خلالها نظريته الإصلاحية.

يعتبر كتاب «الإيديولوجية العربية المعاصرة» حجر الأساس في المشروع الإصلاحي لعبد الله العروي. يعود تأليفه إلى سنة ١٩٦٧م. وتزامن صدوره مع وضع نفسي وسياسي خاص عاشه العالم العربي في هذا الظرف، تسببت فيه الهزيمة القاسية للعرب أمام الكيان الصهيوني، وقد أحدث هذا الظرف رجة ثقافية عنيفة، جعلت النخب العربية

تراجع قناعاتها الإصلاحية، وتتطلع إلى صوغ نموذج إصلاحي أكثر صلابة، وفعالية لتحقيق التقدم، خاصة بعد فشل الرؤية القومية، ومن ثم فأطروحة العروي هي جواب عن هذه الأوضاع، واقتراح نظري يبسط المسالك والدروب المعقدة، التي من شأنها تأمين انتقال الأمة العربية إلى مصاف الدول المتقدمة، وتجاوز التأخر التاريخي الذي تعاني من تبعاته.

بعد «الإيديولوجيا العربية المعاصرة»، أصدر العروي سلسلة من المؤلفات الأخرى التي تسير في منحاها، وهي بمثابة هوامش أو حواشي «الإيديولوجيا»، أتاحت له الفرصة تدارك الالتباسات، والإشكالات، والنواقص... التي تضمنها كتاب «الإيديولوجيا»، ومن أهم هذه الكتب: العرب والفكر التاريخي (١٩٧٣)، أزمة المثقفين العرب (١٩٧٤)، مفهوم الإيديولوجيا (١٩٨٠)، مفهوم الدولة (١٩٨١)، مفهوم الحرية (١٩٨١)، ثقافتنا في ضوء التاريخ (١٩٨٣)، مفهوم التاريخ (١٩٩٢)، مفهوم العقل (١٩٩٦)....

فالعروي من خلال هذه الأعمال التي صدرت بالتتابع على مدى ثلاثة عقود تقريبا، أبدى تصميما كبيرا على «الإيديولوجيا العربية المعاصرة»، ولم تزحزح الأحداث الراديكالية التي شهدها العالم، وبشكل خاص العالم العربي قناعاته الفكرية والإصلاحية، فلا زال إلى يومنا هذا مؤمنا وفيا لتعاليم «كتابه»، ولا يفوت أي فرصة لتذكيرنا بأن روح الإيديولوجية العربية لا زالت حية، وقادرة في الآن نفسه على الإحياء، فكل مرة يردد بصيغ وعبارات مختلفة «لا لحاق إلا بالإلحاق»، أي لا لحاق لأمة العرب بسطح العالم، وغرفة القيادة، إلا بسياسة إلحاقية، قائمة على القطيعة، تدمج العرب في العصر ثقافيا وسياسيا، وأقصى ما نلاحظه في هذا السياق من تطور على فكر العروي، وقناعاته الإصلاحية هو تطور في القاموس ولغة التعبير، أكثر مما هو تطور في المبادئ والمنهج والغايات؛ فبدل الماركسية الموضوعية، أخذ العروي في السنوات الأخيرة يتحدث عن الحداثة،

وشروط الالتحاق بها، وهي نفس شروط «الإيديولوجيا العربية»، وسنقف فيما يلي مع مثال دال على هذه الاستماتة، لنرى التحوير الذي أقدم عليه العروي للإبقاء على روح «الإيديولوجيا»، بالرغم من انهيار الاتحاد السوفياتي، وانقلاب أوروبا الشرقية نحو الديمقراطية...إلخ.

ففي سنة ٢٠٠٥ ألقى العروي محاضرة بالرباط حول «عوائق التحديث»[1]، لخص فيها مشروعه الفكري، أو بعبارة أصح حيَّن من خلالها مفردات «الإديولوجيا العربية»، وقد قمنا بقراءة في هذه المحاضرة بعد صدورها في كتاب سنة ٢٠٠٦، نشرناها في جريدة التجديد المغربية، وبعد ذلك ضمن كتابنا «الإسلام والحداثة»، وبالرغم من قصر المحاضرة، وقصر القراءة التي قمنا بها، فإنها تؤكد أن الحداثة والإيديولوجية العربية المعاصرة وجهان لعملة واحدة، فالأولى تحيل على الغاية، بينما الثانية تحيل على الأداة الفكرية والسياسية، وفيما يلي قبس من نص القراءة:

«تناول الأستاذ عبد الله العروي في مستهل محاضرته مفهوم الحداثة مميزا بين المفهوم النظري وحقيقته التاريخية، وخلص من ذلك إلى أن مفهوم الحداثة يدور حول المفاهيم التالية: «الفردانية، العقلانية، الحرية، الديمقراطية، العلمية أو العلمانية»[2]، وهي من منظور المؤرخ واقع تاريخي تمثل في ثورات متتالية سياسية واقتصادية ومعرفية، حدثت في مجال محدد ومعروف تاريخيا وهو الغرب الأوروبي، وقد واكبتها ظواهر مضادة لها. ومن الأشياء التي وقف عندها المحاضر في هذه المناسبة التناقضات الذاتية للحداثة، وقد أجملها في ثلاث: الاستعمار، والحروب، والثورة الشاملة، التي انقلبت على المفاهيم الأساسية للحداثة. «فقد تجسدت أزمة الفردانية في الماركسية، لأنها في الأساس هي نقد الفردانية. تجسدت أزمة الحرية في الاشتراكية. تجسدت أزمة العقلانية في الفرويدية وغيرها. تجسدت أزمة الديمقراطية في النظام

(١) عبد الله العروي، عوائق التحديث، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط. ١/ ٢٠٠٦.
(٢) نفسه، ص. ١١.

الفاشستي وغيره. وتجسدت أزمة العلم في النظرية النسبية...»[1]. فطبيعي والحالة هاته أن تواجه الحداثة بالرفض والمعارضة في مناطق مختلفة من العالم.

لكن بيت القصيد في هذه المحاضرة هو موقف العروي من الحداثة والسلبيات التي صاحبتها، ففي تقديره «لا يمكن معارضة الحداثة إلا بتجاوزها، ولا يمكن تجاوزها إلا باستيعابها»[2]. فلا حل لنا سوى العوم مع موجة الحداثة – على حد قوله- حتى نكون مع الناجين. وختم حديثه بذكر العوائق التي تحول دون تحقيق الحداثة في المغرب والعالم العربي، واكتفى بذكر نوعين، الأول عائق فكري، ويتمثل في معارضة الحداثة باعتبارها مروقا وتنطعا وجهالة، والثاني يتجلى في كل ما يعوق تحرير الفرد من مختلف التبعيات السياسية والاجتماعية العائلية...

وكان جواب الأستاذ عبد الله العروي عن الاستفسارات التي قدمها أمامه كل من الأستاذ عبد المجيد قدوري والأستاذ نور الدين أفاية، فرصة لتوضيح بعض القضايا التي بقيت غامضة أثناء المحاضرة، ومن هذه القضايا؛ قضية العقيدة والإيمان في ظل الحداثة الموعودة، فلم يغفل المحاضر في هذا التعقيب عن تبديد مخاوف المؤمنين، إذ أكد أن «لا خوف على العقيدة في نطاق الحداثة»[3]، أو «لا خوف على الإسلام من الحداثة»[4]، فقال «لو سألنا أي شخص عن عدد المؤمنين الحقيقيين، هل هو أكثر في بلادنا أم في بلاد الحداثة؟... بل إن عقيدتي الراسخة هي أن الإيمان الحقيقي لن يترسخ من خلال معانقة الحداثة بل ملاكمتها»[5].

---

(١) نفسه، ص. ١٧، ١٨.
(٢) نفسه، ص. ٢٢.
(٣) نفسه، ص. ٥٢.
(٤) نفسه، ص. ٥٣.
(٥) نفسه، ص. ٥٣.

وعموما، رغم إمكانات العروي التحليلية والتركيبية التي مكنته من استيعاب قضية كبيرة في محاضرة قصيرة، ويقدم خريطة إشكالاتها وتعقيداتها، فقد بقيت بعض الإشكالات الحيوية خارج التغطية، ولم تثر نظره إليها التعقيبات التي تليت أمامه، وتتلخص في الغاية والنموذج الذي نقصد تحقيقه من خلال نفي الحداثة وتجاوزها، فقد لا تختلف «الفرق الكلامية» المعاصرة إسلامية ويسارية حول الموقف الذي رآه العروي أساسيا في التعامل مع الحداثة، ومعالجة تداعياتها في عالمنا العربي والإسلامي، وهو التجاوز من خلال الاستيعاب، لكن مثار الخلاف هو الغاية من هذا التجاوز، فهل الغاية بناء مجتمع حداثي على الطراز الغربي؟ أم الغاية مجتمع حداثي على غير مثال سابق؟. ثم هناك إشكالية أخرى لا تقل أهمية عن الإشكالية السابقة وتتعلق بمنهجية تجاوز الحداثة من خلال استيعابها، فهل الاستيعاب المطلوب يجب أن يكون مطلقا للقيم كما للأفكار والمناهج، أم لابد من رؤية انتقائية تتحفظ على بعض المواقف والقيم الحداثية؟

إن الأستاذ العروي يجزم أن الطريق الوحيد للتحديث في عالمنا العربي هو الأخذ بأسباب الحداثة الغربية من فردانية وعقلانية وعلم حديث...، استنادا إلى فلسفة تاريخية لا يغرب عنها المثال الغربي. فهل يمكن أن نتحقق من هذه القيم والمبادئ بعيدا عن التحقق من تاريخها (الثورة الاقتصادية والسياسية، والإصلاح الديني)؟. فيستحيل على البلاد العربية اليوم أن تعيش تاريخ شعوب أخرى وبالتالي تستجدي حداثتها، فهذا ليس من عادة التاريخ ودروسه، «فالتاريخ لا يعيد نفسه»، ولو في الفضاء الذي حدث فيه. فإذا كانت قوانين ونواميس الحداثة الغربية واضحة لدينا اليوم وعلى مستوى العالم، فإنها ليست مطلقة بحيث تصبح شرطا للتحديث في المستقبل ولأي طرف في العالم.

فالغرب الأوروبي في عصر النهضة وهو يصوغ طريقه نحو الحداثة

الشاملة لم يأخذ بالحداثة الإسلامية السائدة آنذاك إلا في جوانب محدودة علمية وفلسفية وتقنية. والمواقف التي وقفها الغرب من تاريخه وتراثه الديني والفكري وهو يطلب الحداثة، والتي تمخضت عنها مبادئ التحديث من فردانية وعلمانية وعقلانية... ليست بالضرورة هي نفس المواقف التي يجب أن نقفها نحن، وذلك ببساطة شديدة، لأن تاريخنا مختلف تماما عن تاريخهم. ففي المسألة الدينية -على سبيل المثال- لا يمكننا أن نتخذ نفس الموقف الذي اتخذه رجال الإصلاح الديني في أوروبا ككالفن ومارتن لوثر... من الديانة المسيحية في شكلها الكاثوليكي، ذلك أن الكنيسة في العصر الوسيط كانت العائق الأساسي أمام تحرر إرادة وعقل الإنسان الغربي، وبالتالي كانت عائقا أمام التحرر السياسي والاقتصادي، الشيء الذي لا ينطبق تماما على الإسلام.

فالمفاهيم، والقيم، والمبادئ التي ينتظر منها أن تؤطر الحداثة والتحديث في عالمنا العربي هي التي ستتبلور في سياق نقد شامل للتاريخ العربي والإسلامي، وبالتزامن مع تاريخ جديد نعيشه، ولن تكون بالضرورة مطابقة للمفاهيم والمبادئ الغربية. فنقد التاريخ الاجتماعي والسياسي العربي قد يؤدي بنا إلى مفاهيم وقيم تحديثية تبتعد كثيرا أو قليلا عن مفهومي الحرية والديمقراطية بصورتيهما الغربية، وهكذا في المسائل الأخرى. ولا نخفي في هذا السياق إمكانية الاستعانة على هذه المهمة بأدوات نقدية غربية تنتسب للعلوم الإنسانية أو التجريبية...

وأخيرا، إن التخوف على الإسلام من الحداثة الذي حاول أن ينفيه الأستاذ العروي، مبعثه توسل الحداثيين بمفردات ومفاهيم الحداثة الغربية في بناء مشروع الحداثة العربية والإسلامية؛ هذه المفاهيم التي تستبطن مفهوما كنسيا للدين وإن تعلق الأمر بالإسلام، ونشأت على خصومة وصراع معه (الدين). ومعلوم أن هذا لا يصدق على الإسلام ودوره التاريخي، أو الدور المفترض أن يسهم به في مشروع الحداثة.

والذي يعزز هذا الخوف، والشعور بعدم الاطمئنان هو انفصال قطاع عريض من النخبة في بلادنا وغيرها من البلاد العربية التي تتحمل عناء التحديث عن تاريخ الإسلام والمسلمين، وفي المقابل انخراطها في تاريخ الغرب وروحه الحضارية، الشيء الذي يجعل من مساعيها التحديثية في أحيان كثيرة موجهة ضد الإسلام في هذا البلد أو غيره، أو على الأقل هكذا تفهم من طرف جمهور المتدينين»[1].

وإجمالا، فالحداثة انطلاقا من هذا النص، وكما بينا في هذه القراءة هي تغيير تكتيكي في مشروع «الإيديولوجية العربية المعاصرة»، مس الجانب اللغوي والتواصلي ولم يمس جوهر النظرية ومبادئها الرئيسية، فالعروي لا زال متشبثا بالمقولات الرئيسية التي أفصح عنها في «الإيديولوجية العربية المعاصرة»، ولا زال حاملا لروحها الماركسية.

إن العروي في كل ما كتبه تقريبا حول الإصلاح في الوطن العربي، وإمكانيات الخروج من المأزق التاريخي الذي تكمن فيه الأمة، يعالج مسألة حيوية، تتكرر في معظم نصوصه بأشكال مختلفة، ويتعلق الأمر بمفهوم الأصالة ومرفقاته، فقد استدل بأنواع مختلفة من الاستدلالات على رجعية الأطروحة الإصلاحية الإسلامية، التي تتخذ في الإعلام عناوين: السلفية، وتيار الأصالة، والحركة الإسلامية... وغيرها من العناوين، وأثبت بناء على هذه الاستدلالات عدم قدرتها على تحقيق الغاية المنشودة من الإصلاح، أي تدارك التأخر التاريخي الذي تعاني الأمة من ويلاته.

ومن الملاحظات الأساسية التي لاحظناها على العروي وهو يفكك الفكر الإسلامي قديمه وحديثه، اعتماده في معظم الحالات على نصوص إصلاحية ترجع لجيل الإصلاحيين الأوائل، أمثال عبده، والأفغاني، ورشيد رضا... من المشارقة، والزعيم السلفي علال الفاسي من المغاربة،

---

(١) امحمد جبرون، الإسلام والحداثة، طباعة دار أبي رقراق، الرباط، ط. ١/ ٢٠٠٩، ص. ٥٦-٥٩.

فالسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق: هل الأطروحة الإصلاحية الإسلامية تجمدت مع هؤلاء الأشخاص، ولم تعرف بعدهم تطورات ذات أهمية تستحق العودة إليها؟

إن الجيل الأول من الإصلاحيين ركز جهده الفكري على مسألة رئيسية وهي إثبات عدم تناقض الإسلام مع العصر، وأنه قادر على الإتيان بالتقدم، وليس حجر عثرة أمامه، وفي هذا السياق عمل على بيان براءة الإسلام من مظاهر الانحطاط المتفشية بين المسلمين، ومن ثم، معظم المؤلفات التي تنسب لأقطاب هذا الجيل وعلى رأسهم عبده والأفغاني محكومة بهذا السياق.

لكن، وبالتزامن مع هذه الحركية الفكرية الإصلاحية التي أطلقها هذا الجيل، وبعد انقراضه بقليل ظهرت تيارات «الإسلام الحركي» أو ما يصطلح عليه اليوم بالحركة الإسلامية في أكثر من مكان من خريطة الوطن العربي، وتعتبر هذه التيارات ترجمة عملية للأفكار الإصلاحية التي أفصح عنها الإصلاحيون الأوائل، فالإخوان المسلمون في مصر، وفي بقية العالم العربي، والحركات الإسلامية المغربية لم يتجاوزوا في أعمالهم المختلفة الأفق الإصلاحي الذي عبر عنه عبده والأفغاني...، والذي تلخصه شعارات: «الإسلام هو الحل»، «الإسلام صالح لكل زمان ومكان»، «الإسلام دين العقل»...

وبالرغم من ارتباط الحركة الإسلامية بأصل الفكرة الإصلاحية كما صاغها الأوائل، فإنها عمليا غلبت عليها السياسة، ومقاربة شؤون الحكم، فخرجت من عباءتها أحزاب سياسية، وقادة ميدانيون كثر... إلخ، غير أن المشكلة التي أثارتها هذه الممارسة هي «طابعها المادي الصرف»، بحيث تبدو للمتابع عن بعد، افتقادها لنظرية عامة تدافع عن شرعية العمل السياسي وتنير طريقه، وتوجهه الوجهة التاريخية الصحيحة، الخادمة لأغراض الأمة، وغاياتها الحضارية الكبرى.

إن الانطباع الذي ينطبع في ذهن المتابع العادي (غير المتخصص) للشأن الحركي الإسلامي، هو أن الحركة الإسلامية همها الرئيس هو الحكم، وتلهث وراءه، مستخدمة جميع الوسائل المتاحة لها شرعا، غير أن الحقيقة بعيدة جدا عن هذا الاختزال، فالحركة الإسلامية في جوهرها، حركة نقدية، شاملة، ومزدوجة، تعمل في اتجاه الذات، لتأهيلها للانخراط في العصر، وفي اتجاه الآخر، لتمييز خيره المطلوب اقتفاؤه عن شره الواجب اجتنابه، وهي حركة يفترض فيها الدوام والاستمرارية، وأي توقف قد يصيبها، يؤدي بالحركة الإسلامية حتما إلى المحافظة، وتعميق التأخر التاريخي، غير أن الواقع العملي للحركة الإسلامية يؤكد تخلف البعد الفكري عن البعد السياسي، وسيادة الاطمئنان بدل القلق والنقد، بحيث أمست العربة الإسلامية أمام حصانها، الشيء الذي يعوق السير الرشيد، ويهدد المشروع بكارثة خطيرة، إذا لم يتدارك أمر هذا الخلل، وتقام الموازين إقامة صحيحة.

ومن ثم، فالاشتغال النقدي «للعقل الإسلامي» على مشروع قوي وصلب من قبيل «الإيديولوجية العربية المعاصرة»، ليس القصد من ورائه تزكية نزعات المحافظة في المجال الإسلامي، وتكرار أقوال الإصلاحيين الأوائل، وإعادة بناء أنساقهم الاستدلالية بما يناسب العصر، ولكن القصد منه تجديد القراءة النقدية للذات والآخر بما يناسب الظروف الجديدة للحركة الإسلامية المعاصرة، ذلك أن همنا الرئيس هو الذات، هو جدل الأصالة والنهضة في سياق العصر، وليس الانتقام الذي تجسده «العودة من أجل العودة» للأفكار والأشخاص، وهو ما سنحاول القيام به في هذا العمل، فالنظر إلى الخلف هي حركة معرفية الغرض منها التمكن من التقدم السريع، وبدون أخطاء في السير.

إن المشروع الإصلاحي للأستاذ عبد الله العروي كان محط عدة انتقادات وقراءات مختلفة، ومن جهات متعددة منذ أن ظهرت أولى عناوينه في أواخر الستينيات، وتحديدا سنة الهزيمة ١٩٦٧م، وبالرغم من

مرور وقت ليس بالقصير على ميلاد الجواب الإصلاحي للعروي، فإنه لا زال يحظى بالاهتمام لدى الكثير من أبناء الأمة العربية، ولم يُتجاوز بعد بصفة تامة، بل لا زالت العديد من الأحزاب العربية وبعضها في السلطة يستبطن نظريته الإصلاحية بشكل أو آخر[1].

ومن ثم، فالحضور المستمر للنظرية الإصلاحية للعروي في نقاشنا النهضوي بالعالم العربي من جهة، والتحولات العميقة التي مر بها، أو التي لا زالت تتفاعل في أكثر من زاوية من القبيل العربي من جهة ثانية، يحتم علينا العودة لهذه النظرية، وعرضها من جديد على النقد والتأمل، استخلاصا لحسناتها، وطرحا لسيئاتها.

ومن ناحية أخرى لا أمل في بناء نظرية إصلاحية إسلامية قوية، ومقنعة، إذا لم يقارع النظار الإسلاميون نظريات وأطروحات بحجم «الإيديولوجية العربية المعاصرة»، فنقدها ضروري وحيوي لبناء الصواب الفكري والعملي في الممارسة الإسلامية المعاصرة.

فإذا كان العروي بنى مواقفه الإصلاحية انطلاقا من فهم خاص للتيار السلفي أو تيار الأصالة، وبناء عليه حدد فهمه للعطل الحضاري الذي تعاني منه الأمة، فإن أنصار الأصالة مطالبون اليوم ليس فقط بنقد أطروحة العروي وتسفيه رأيه في الذات والهوية، بل مطالبون بالدرجة الأولى باستيعاب سوء فهمه من ناحية، وإدراك النواقص التي نبه إليها من ناحية ثانية، وذلك في أفق بناء نظرية إصلاحية صلبة، تحترم الذات، وتتجاوز الآخر.

إن نقد المشروع الإصلاحي للعروي الذي عكفنا عليه مدة ليست بالقصيرة، وأجملنا خلاصاته العامة والجزئية في هذا الكتاب، هو أرضية ومنطلق لبناء عدد من المفاهيم المركزية ذات الصلة بالشأن الإصلاحي

(١) من أهم الأمثلة السياسية التي تجاوبت مع نظرية العروي حزب الاتحاد الاشتراكي في المملكة المغربية، الذي مارس المعارضة والسلطة في الدولة المغربية.

الإسلامي، يمكن أن تتحول مع تطور النقاش إلى نظرية إصلاحية متماسكة ومتناسقة، لها القدرة على تأطير العمل الإصلاحي الإسلامي المعاصر، وتمكينه من طريق ثالث غير طريق «الرجعية» أو «الاغتراب».

ترتكز الأطروحة الإصلاحية للعروي على ثلاث محاور أساسية:

- إعادة إدراك الذات في اتجاه إلغائها، ويدخل في هذا السياق عمله الدؤوب على اختزال الإسلام وإعادة تعريفه.

- إعادة تعريف العقل في المجتمع العربي المعاصر، بصورة تسمح للعرب بالاندماج في العصر، والتخلص من العقلانية الوهمية التي يدَّعونها.

- تجاوز المفاهيم التقليدية وعلى رأسها مفهوم الدولة، وتبني مفاهيم حديثة قادرة على تأطير الفعالية الحضارية للإنسان العربي، وتوجيهها لخدمة المعاصرة.

وتبعا لهذه المحاور، قمنا بتوزيع جهدنا النقدي والتنظيري على أربعة فصول، يرجع كل منها لأحد هذه المحاور، وهي:

- من إيديولوجية التطابق مع الآخر إلى إيديولوجية التطابق مع الذات.

- الإسلام، والإسلام التاريخاني.

- الدولة الإسلامية الحديثة: المفهوم والإمكان.

- معضلة العقل العملي في الفكر الإسلامي وآفاق العقلانية.

ومن الناحية المنهجية، انطلقنا في أغلب هذه الفصول من دراسات وأعمال محددة، وقمنا بتقديم مضمونها باختصار، وأتبعنا ذلك بنقد جوهري لأبرز الأفكار والنتائج التي استدل عليها العروي، وفي أغلب الحالات كانت تجرنا هذه القراءة النقدية إلى اقتراح حلول بديلة للإشكالات التي انطلق منها العروي، والتي يمكن اعتبارها المادة

الأولية لأطروحة نظرية جديدة حول الإصلاح من منظور إسلامي...، أطروحة تحترم الذات، وتستفيد من حكمة الآخر. وخلال هذا العمل كنا نلتفت بين الفينة والأخرى نحو أعمال العروي الأخرى التي تتقاطع مع موضوع الفصل.

كلمة شكر:

نشكر مركز نماء للدراسات والأبحاث، على اقتراحه هذا العمل، وتفضله بنشره، خدمة لعشاق المعرفة، وتطويرا للنظر الإصلاحي بالعالم العربي، وهي مهمة استراتيجية في الظروف الدقيقة التي تجتازها أمتنا.

فإلى القائمين على المركز والعاملين فيه جزيل الشكر، وحسن التحية.

وفي الأخير، نسأل الله تعالى أن يكون هذا العمل لبنة -سليمة ومتينة عقلا وشرعا- في بناء فكر إسلامي معاصر، قادر على إعادة الأمور إلى نصابها بعد اختلالها، وتمكين الأمة من منظور مستقل يسمح لها برؤية الذات رؤية صحيحة...، واختيار الطريق السالك نحو التقدم.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

حرره الراجي عفو ربه الدكتور امحمد جبرون

مدينة شفشاون المغربية ٢٥/ ١٢/ ٢٠١١ م

■■■■